Türkiye ... Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

موسوعة عصر النهضة

خير الدين التونسي

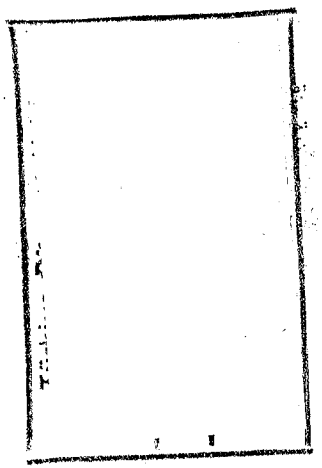

سمير أبو حمدان

الشركة العالمية للكتاب
دار الكتاب العالمي

الشركة العالمية للكتاب ش م ل
طباعة - نشر - توزيع
مكتبة المدرسة
دار الكتاب العالمي
الدار الافريقية العربية

الادارة العامة
الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٣٥١٢٢٦-٣٤٩٣٧٠ - ص.ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً: كتالبان
فاكس: ٣٥١٢٢٦ - ١ - ٩٦١
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٩٩٣م / ١٤١٣هـ

المقدّمة

من الألقاب التي اشتهر بها السياسي والمفكر الإصلاحي خير الدين التونسي، لقب «أبو النهضة» التونسية الحديثة. وليس ذلك بكثير على رجل كانت النهضة شغله الشاغل. فالرجل الذي بدأ حياته مملوكاً في أحد بيوت الأشراف في الآستانة ضحك له القدر، فانتقل به إلى كنف الباي أحمد التونسي، وتقلّب في مناصب عدة، من وزير إلى رئيس للوزراء إلى صدر أعظم، وكان في سائر هذه المناصب التي تبوأها المقاتل الشرس في محاربة الفساد، وفي تحديث البنى والمؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأيضاً في التمهيد لذلك اللقاء الحضاري بين مدنية الغرب ومدنية الإسلام. وقد كان خير الدين يصدر في ذلك كله عن نظرة متطورة إلى الواقع الذي كانت ترزح تحته المجتمعات العربية ـ الإسلامية عامة، والمجتمع التونسي بوجه خاص.

فالرجل شاهد بأم العين مدى التطور الذي حققه الغرب بعد زيارات مختلفة إلى عواصمه. ولعل الشيء الأبرز الذي لفت نظره في المدنية الحديثة هو نزعتها الديمقراطية. ومن هنا دأبه على أن تتمثل تونس بالبلدان التي زارها وأطلع على أحوالها، وبخاصة فرنسا التي كانت في ذلك الحين قد بلغت شوطاً بعيداً في هذا المجال.

ومما يجدر ذكره هنا أن خير الدين كان وراء إنشاء أول مجلس شورى منتخب، وذلك اعتباراً منه أن لا خلاص لتونس مما عليه من تخلف وانحطاط بغير السبيل الديمقراطي، وبغير التحديث كسبيل إلى النهضة والتقدم.

وقد تميز خير الدين التونسي عن غيره من رجالات النهضة في القرن التاسع عشر في أنه جمع بين شخصية المفكر ورجل السياسة، الأمر الذي جعله صاحب تجربة فريدة بين مختلف التجارب التي خاضها غيره من رجال الاصلاح في البقعة العربية والإسلامية. والمواقع السياسية التي تقلّب فيها مكّنته من أن يحقق بعضاً من أفكاره الإصلاحية التي جَمَلَها في كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك».

وفي هذا الكتاب الذي يأتي ثامناً بين مجموعة من الكتب تتناول عدداً لا يستهان به من مفكري عصر النهضة،

عملنا على نشر بقعة من الضوء على إحدى أهم الشخصيات الفكرية والسياسية في القرن الماضي. ونأمل في أن نكون قد وفيناها حقها من الدراسة والبحث. كما أننا نأمل في أن نكون قد أضأنا جوانب في شخصية خير الدين، وفي فكره، وفي سياسته كانت لا تزال معتمة.

سمير أبو حمدان

الفصل الأول

في السيرة الذاتية

- تونس في القرن التاسع عشر
- خير الدين في بلاط الباي
- الضرب على الفساد بيد من حديد
- خير الدين التونسي صدرا أعظم

ثمة صعوبة كبيرة في وضع ترجمة وافية لخير الدين التونسي تحيط بمجمل نشاطه ومراحل حياته. وعلى الرغم من أن هذا المصلح، الشركسيّ الأصل، لا يقل أهمية عن سائر المصلحين المسلمين في القرن التاسع عشر، بل ويفوق بعضهم أهمية، غير أنه لم ينل مثلما نالوا ولم ترتقِ الكتابات عنه إلى مستوى ما حققه من إنجازات ومن أفكار إصلاحية أسهمت إلى حد كبير في نهضة تونس الحديثة. ولو أردنا اختصار هذا الرجل في أسطر قليلة لما وجدنا أفضل من خير الدين الزركلي نستعين به للتعريف بخير الدين التونسي. ففي أعلامه يذهب الزركلي إلى أن «خير الدين باشا التونسي وزير مؤرخ، من رجال الإصلاح الإسلامي، شركسيّ الأصل، قدم صغيراً إلى تونس، فاتصل بصاحبها الباي أحمد وأثرى. وتعلم بعض اللغات وتقلّد مناصب عالية آخرها الوزارة. وبسعيه أُعلن دستور المملكة التونسية سنة ١٢٨٤ هـ ـ ١٨٦٧م ولكنه ظل حبراً على ورق». ويضيف الزركلي: « وفي سنة ١٢٩٤هـ ـ١٨٧٧م أُبعد عن الوزارة، فخرج إلى الآستانة وتقرب من السلطان عبد الحميد العثماني فولّاه الصدارة